العقل الباطن وعلاقته بالصحة والمرض
دراسة إبستمولوجية في إطار فكر أبي حامد الغزالي

The subconscious mind and its relationship to health and disease
An epistemological study

د. نادية جازولي
أستاذة محاضرة (أ)
جامعة الجزائر 2
djaz_nad@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/09/28 تاريخ القبول: 2022/05/10 تاريخ النشر: 2022/06/01

الملخص:

يتناول هذا الموضوع أحد المفاهيم الشائعة عند علماء النفس المسلمين بصفة عامة والغزالي بصفة خاصة، وهو العقل الباطن. وهو مفهوم أصبح اليوم محور الدراسات الغربية الحديثة بديلا عن المفهوم الكلاسيكي (أي اللاشعور). كما أصبح متداولا عند خبراء التنمية البشرية، لكن البحوث فيه لم تصل بعد إلى درجة الأكاديمية العلمية.

مقاربة هذه الدراسة، هي نقد مبدأ من مبادئ نظرية فرويد (اللاشعور) مع تقديم هذا المفهوم البديل (العقل الباطن) بعد دراسة تحليلية لفكر الغزالي وذلك بالتركيز على خصائصه وعلاقته بالصحة والمرض..

الكلمات المفتاحية: العقل الباطن ; الصحة ; المرض

Abstract:

This topic deals with one of the common concepts of Muslim scientists in general and Al-Ghazali in particular, the subconscious, a concept that today has become the focus of modern studies as a substitute for the classical concept of human development. Yet the

research has not reached the Scientific Academic level despite the human experts' efforts.

The approach of this study is to criticize a principle of the theory of Freud (the subconscious) with the introduction of this alternative concept (subconscious) after an analytical study of the thought of al-Ghazali, focusing on its characteristics and its relationship to health and diseas

Keywords : Subconscious mind ; health ; disease

1.مقدمة:

إن النظريات الغربية لم تتطرق إلى موضوعات علم النفس في صلتها بالنفحة الروحية الإلهية، حيث أغفلت في دراستها وبحوثها توجه النفس البشرية فطريا إلى خالقها، واستمدادها منه مكوناتها وقوانين تحركها وطاقاتها، ولعل ذلك راجع إلى أن النظريات الغربية كانت بمثابة رد فعل على الكنيسة، بل سلطان الدين كله، لأنه كان مجسما في الكنيسة. فعلماء الغرب كانوا يظنون أن العقيدة الدينية تناقص العقل، وفيها الكثير من الأمور التي تثقل على الأفهام ولا يتقبلها العقل، فأخذوا مفاهيم عن النفس وعن الإنسان من العقل وحده، ظنا منهم أن العقل بما سيجمع من دقائق العلم قادر على أن يبتكر الوسائل الناجعة لمعرفة الإنسان وحقيقة نفسه. فتبنوا مفاهيم وقيم فلسفية الروح، داروينية المنهج، علمانية المنحى، وبتبنيهم ذلك كونوا نظرة جديدة للتاريخ وللإنسان وللنفس البشرية. لكن الكشوفات العلمية الجديدة في علم الفسيولوجية وعلم الأعصاب تعترف باستقلالية العقل والروح عن المادة وتؤكد أنهما جوهران مستقلان عن الجسم، وأن علم النفس الحديث ينظر اليوم إلى الإنسان بنظرة مغايرة من حيث لديه دوافع وقيم روحية وطموحات عالية تميزه عن الحيوان، "كل ذلك يبشر بالعودة مرة أخرى إلى الإيمان بالله، الذي كانت المذاهب المادية في السابق تنكر وجوده، ويوحي بأن علم النفس يقترب شيئا فشيئا إلى علم نفس جديد يعترف بالدين وبوجود إله يرشد الإنسان ويوجه سلوكه" (يوسف مدن، 2006). إن ظهور بوادر حركة جديدة، وبوادر نمو اتجاه مذهب جديد يمثله علماء النفس الإنساني، خاصة دعاة المذهب النفسي الديني أمثال يونغ (Young) وفرانكل (Frankal) وغيرها، يعتمدون القيم والمبادئ والتعاليم الدينية، ويقرون بأهميتها في فهم الإنسان والتعامل معه وعلاج أمراضه، لأن تجاربهم المهنية تثبت ذلك وتؤكده، الأمر الذي يتطلب إعادة النظر في الكثير من المفاهيم الغربية، وإعادة

تعريفها إجرائيا بما يتفق مع التصور الإسلامي للإنسان، فلم يعد مقبولاً استمرار الغفلة وتجاوز المخزون القيمي والعقائدي للأمة وعلاقته بسيكولوجيتها. وهذه الدراسة تصب في هذا الإطار، فهي دراسة تربط النفس بخالقها أي أنها غير معزولة عن الله، وهي أيضا دراسة ابستيمولوجية، أي دراسة نقدية لمبدأ من مبادئ نظرية فرويد، مع تقديم المفهوم البديل (العقل الباطن) الذي يقابله في الفكر الإسلامي عند أبي حامد الغزالي.

2- الإشكالية:

لئن أشار فرويد إلى الجانب السلبي من العقل الباطن وأفاض فيه وأطلق عليه اسم اللاشعور، فإن البحوث الحديثة اليوم في الغرب تشير إلى الجانب الإيجابي حيث بدأ العلماء يتحدثون عن نظرة جوهرية للأصالة ملخصها أن هناك ذات صحيحة واحدة لكل منا. فنحن صحيحون إلى درجة أننا نختار بصدق وبذات مستقلة ونملك القدرة على استرجاع الصحة بناء على قرار استقلال ذاتي (Martin W. 2006). ذلكم هو اتجاه رواد علم النفس الإيجابي، هذا الاتجاه الذي يقوم على ثلاثة أعمدة: الأول دراسة الانفعالات الإيجابية، والثاني دراسة السمات الإيجابية وأهمها جوانب القوة والفضيلة، وكذلك القدرات كالذكاء والرياضة، والثالث دراسة المؤسسات الإيجابية مثل الديمقراطية والأسر القوية وكلها مؤسسات تدعم الفضيلة (مارتن سيلجمان، 2005: 10).

إن علم النفس الإيجابي يركز على موضوعات كثيرة منها القوى الإنسانية والفضائل والوجود الأفضل والتدفق والذكاء الناجح والدفاعات الناضجة وهذه كلها تفترض وجود قيم في جميع الأحوال والحالات (Mike Martin, 2006). لكن الخلاف وارد في تصنيف هذه القيم بحيث تتعدد قوائم العلماء وتتضارب وتتقاطع فيما بينها مما جعلها تتصف بالتكرار والتراكم الذي لا يساعد على الاستيعاب وبناء تصور متماسك عن خصائص الصحة النفسية (مصطفى حجازي، 2004 :52-53). وتوجد بحوث أمبريقية كثيرة تؤكد أهمية القوى الإنسانية والفضائل في تحقيق الصحة النفسية والحياة الطيبة والسعادة، لكن مزيدا من البحوث لازالت رهن الانتظار كما أكدت على ذلك الجمعية الأمريكية للطب النفسي (Jorge Vaillaint, 752). لأن علم النفس حاليا لا يعرف حقا آلية العملية النفسية لهذه الجوانب الإيجابية (Jorge Vaillaint, 176). كما يفتقر لتصور لنظرية كلية في هذا المجال (بول ب. باتلس، ألكسندرا م. فروند، 2003:37). وترى الباحثة أن السبب في ذلك هو عدم وجود تعريف علمي واضح ومحدد للعقل الباطن، مما أدى إلى عدم وضوح كل المفاهيم

الأخرى المتعلقة به وعدم أهليتها كمصطلحات لبناء نظرية علمية كما أكد على ذلك علماؤهم أنفسهم(Barbara Resnick, 2008: 01) .

لذلك فالمنهجية العلمية والموضوعية في البحث، تقتضي الرجوع إلى منبع ومصدر الصحة والمرض العقل الباطن لتحليله ودراسته وتحديد مفاهيمه وليس العكس، فالقوى والفضائل والإرجاعية Résilience وغيرها من المفاهيم المرتبطة بعلم النفس الإيجابي ما هي إلا ثمرات هذا العقل وفروعه. ولذلك دراسة الأصل أولى من الفرع لأن الفرع لا يفهم إلا بالرجوع إلى الأصل. إن استرسال الغرب في البحث عن الفروع على حساب الأصل هو الذي أوقعه في التطرف، من علم نفس سلبي إلى علم نفس إيجابي، وفي العلم الواحد إلى تعدد وتضارب الآراء. وهذا موضوع آخر مهم يخصص له بحثا مستقلا، لكن ها هنا نقطة مهمة تؤكد عليها وهي أهمية الرجوع إلى ماهية العقل الباطن من حيث هي الأساس في فهم كل سلوكات الإنسان سويا كان أم غير سوي، وفي استيعاب كل الحالات البشرية والإنسانية. دراسات غربية كثيرة بدأت تبحث في هذا الجزء العميق من النفس، ودورات تدريبية كثيرة أيضا تُنظم في كيفية التعامل مع هذا العقل لكنها لازالت غير أكاديمية وتحتاج إلى التأطير العلمي المنهجي. هذه المقاربة ستجد مدخلا من بيت هذه الدراسات لتقدم نسقا معرفيا منظما يطرح نظرة كلية تكاملية وظيفية لمفهوم العقل الباطن من حيث هو المخزن الوظيفي لكل المتغيرات التي يطرحها علم نفس الإيجابي وكذا علم النفس السلبي. فما هو مفهوم العقل الباطن؟ وما هي خصائصه؟ وما هو الفرق بينه وبين اللاشعور؟ وما علاقته بالصحة النفسية؟

3- أهمية البحث:

1- يعتبر هذا البحث دراسة ابستيمولوجية أي قائمة على نقد مسلمات أساسية في نظرية غربية (نظرية التحليل النفسي لفرويد) مع تقديم بدائل تعتبر كمسلمات لفكر جديد قد يصبح بعد التطوير والإثراء قاعدة لنظرية جديدة في علم النفس.

2- صياغة أفكار الغزالي في أسلوب علمي واضح وبسيط، نقرب به القارئ إلى هذا العالم لأنه صعب وغامض.

4- أهداف البحث:

1- تحديد مفهوم العقل الباطن وتحديد الفرق بينه وبين اللاشعور. 2- تحديد خصائص العقل الباطن.3- توضيح علاقة العقل الباطن بالصحة.4- توضيح علاقة العقل الباطن بالمرض.

أولاً – مفهوم العقل الباطن عند الغزالي:

العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معان هي: القوة العقلية الهيولية، القوة العقلية بالملكة، القوة العقلية بالفعل، وكمال قوة العقل (الغزالي، 1981: 49-52).

ما نلاحظه في هذه المعاني الأربعة للعقل أن هناك قوة عقلية تولد مع الإنسان، ثم لا تزال تنمو تدريجيا إلى أن تبلغ منتهاها وكمالها، فتكون في الأول عبارة عن استعداد محض ليس فيه أية معلومة ثم تشرق فيه بعض المبادئ العقلية الأولية عند سن التمييز، ثم تتسع وتزداد بالاكتساب والتجربة والممارسة، ولا تزال تنمو وتنمو بالتدريج إلى أن تبلغ في الأخير قمتها وكمال إشراقها بالقرب من الأربعين. فالعقل عند الغزالي لا يرد إلى مجرد العلوم، وإنما يرد إلى هذا المعنى الغيبي الباطني فيه. ويعبر الباحث نور الدين السافي عن هذه الفكرة في تحليله لأفكار الغزالي بما يلي:

(يكون العقل حاكم آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه كما كذب العقل الحواس من قبل، ولا يكون هذا الحاكم إلا تلك الغريزة الساكنة في قرارة أنفسنا هي ذلك).

ومن هذا الجانب الغيبي الباطني يشترك العقل الباطن مع ألفاظ أخرى [النفس، القلب الروح] في هذا المعنى. فكل من لفظ العقل والروح والقلب والنفس حسب الغزالي، ذات معنيين: معنى حسي وهو موجود عند البهائم وحتى عند الميت. ومعنى غيبي، وهو خاص بالإنسان، وهذا هو المعنى المشترك بين هذه الألفاظ. ولقد عبر عنه الغزالي باللطيفة الربانية (الغزالي، ج: 04)، التي تتوارد عليها الألفاظ بمعناها الحسي.

فالعقل هو النفس وهو القلب وهو الروح من جهة اشتراكهما في هذه اللطيفة الربانية التي أطلق عليها الغزالي ألفاظا مختلفة حسب الموقف أو الوضع الذي تكون فيه، فهي أحيانا البصيرة الباطنة أو نور الإيمان أو النور الإلهي (الغزالي، د: 224)، أو القلم (الغزالي،ج: 04) من حيث كونه ينقش العلوم في الصدر وهذا المعنى المشترك هو حقيقة النفس الإنسانية، اما المعاني الحسية لكل من العقل والقلب والنفس فهي عرضية وزائلة وفانية. فالعقل الباطن عند الغزالي، ليس هو الجهاز العصبي المركزي، بل يشير إلى شيء باطن فيه، ولذلك كانت التسمية له بالعقل الباطن.

ثانيًا – خصائص العقل الباطن:

إن تحليل الباحثة لأفكار الغزالي، أثبت أن العقل الباطن عند الغزالي يتميز بخصائص معينة، نلخصها فيما يلي:

- العقل الباطن قوة لا محدودة:

العقل الباطن هو عالم باطني مكون في أعماق الشخصية، "ليس له طول ولا عرض" (الغزالي، 1981: 27-31)، كما سطرت فيه جميع حقائق الأمور ما يكون من عمل وأثر ورزق وأجل وما

هو كائن إلى يوم القيامة فهو نسخة موافقة للعالم الموجود، (الغزالي، 1981:18) وعبر عن هذا المعنى الباحث " **فيكتور باسل**" حين قال أن العقل الباطن "يحمل جميع المراحل التي مرت بها الخليقة في تكوينها وتطورها، وباتصال جذور الكائنات ببعضها وتشابك أصولها التي تمتد في قلب الزمن" (فيكتور باسل 271).

فالعقل الباطن قل هو قوة لا محدودة، وكثير من الدراسات الحديثة أشارت إلى هذا المعنى، والنصوص التالية تبين ذلك: فأكثر من 90% من حياتنا العقلية هي العقل الباطن (جوزيف ميرفي، 2008: 107). (فهو عقل ذو قوة عظيمة، عقل كوني، عقل تأثيره قوي ومدهش، عقلا لا يحده المكان والزمان، عقل يحتوي كل المعارف (الغزالي، 2006: 12).

وإذا كان العقل الواعي يستقبل 8+-2 معلومة في الثانية، فإن العقل اللاواعي يستقبل مليارين معلومة في الثانية (شيخ الأرض، 2007: 36-37).

كان هذا الاكتشاف بالنسبة للعلماء والباحثين، أمرا مذهلا ومعجزا للغاية، فهذه القوة اللامحدودة واللامعقولة للعقل الباطن، قد تفسر وجهة نظر الغزالي وهي أن العقل الباطن نسخة موافقة للعالم الموجود.

ولذلك وصفه أحد الباحثين بأنه "السر الأعظم لكل العصور، فلا تضاهيه قوة الطاقة الذرية، ولا السفر عبر كواكب الفضاء، ولا الثقوب السوداء، فالقوة العجيبة الموجودة في العقل الباطن هي التي تحقق المعجزات، وهي آخر مكان ينشده أغلب الناس، وهذا هو سبب أن القليل جدا منهم يجيدون"(جوزيف ميرفي، 2008: 10).

ولقد ربط العلماء المحدثين السعادة والصحة النفسية بحسن استغلال هذا العقل الباطن حيث يستطيع الإنسان في نظرهم أن يحقق المزيد من السلطة والثروة والصحة والسعادة والهناء من خلال الوصول إلى قوة العقل الباطن، وإخراجها من مكمنها، وهذه القوة لا تكتسب وإنما يمتلكها الإنسان بالفعل فقط، يحتاج أن يتعلم كيف يستخدمها في جميع جوانب الحياة (ففي أعماق العقل الباطن، حكمة لا حدود لها وقوة مطلقة ومخزون لا نهائي من كل ما هو ضروري، وكل هذا ينتظر من الإنسان أن ينميه ويظهره (ميرفي، 2008: 11).

- العقل الباطن مرآة المعرفة:

يرى الغزالي أن العقل كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة. ونسبة هذه الغزيرة (أي العقل) إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة أثر الشمس إلى البصر (الغزالي، أ،75). ولقد شبه بعض الباحثين في الغرب العقل الباطن باللوح

الحساس الذي تنطبع عليه الصور من خارج (جوزيف ميرفي،254). لكن الغزالي جعل انطباع الصور في العقل الباطن بطريقتين: الأول خارجي من الحواس والثاني من اللوح المحفوظ، والنص التالي يبين ذلك:

"والقلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها، فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك تفجر الماء من عمق الأرض، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس" (الغزالي، ج،17).

- العقل الباطن مصدر الرؤيا:

الرؤيا عند الغزالي، ما هي إلا انفتاح باب هذا اللوح لتتطلع النفس على بعض خفاياه، بحيث ينفتح باب الباطن، ويكشف غيب من العالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ، فيكون كالضوء، وفي حالات كثيرة "يحتاج هذا الكشف إلى تفسير، أي إلى شيء من تعبير الأحلام" (عثمان نجاتي، 1993: 184).

يقول الغزالي في هذا الصدد: "للقلب بابان، باب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة، وعالم الملك والشهادة يحاكي عالم الملكوت نوعا من المحاكاة، فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس، فلا يخفى عليك، وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملك ومطالعة الروح المحفوظ، فتعلمه يقينا بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس، وإنما ينفتح ذلك لمن انفرد لذكر الله" (الغزالي، ج،18).

إن علماء النفس المحدثين أعادوا النظر في مفهوم الحلم حيث توصلوا إلى أن الحلم لا ينشأ فقط نتيجة للمؤثرات الحسية الخارجية أو الداخلية، وإنما ينشأ كذلك نتيجة لإيحاءات أو إلهامات إلهية تحمل للإنسان نوعا من البشرى بأحداث سعيدة ستحدث له، أو الإنذار بشر سيقع له (عثمان نجاتي، 2001: 62). وهذا مفهوم الرؤيا الذي أشار إليها الغزالي والذي ذكر في الكتاب والسنة، كرؤيا الفتيين اللذان كانا مع يوسف عليه السلام في السجن، ورؤيا ملك مصر.

- العقل الباطن المخزن الوظيفي لأعمال الإنسان و أقواله:

جميع سلوكات الإنسان، في كل حالاتها، وكل صغيرة وكبيرة تصدر من الشخصية، تسجل في هذا العقل، وتنتقش فيه تاركة آثارها في النفس. فإما آثار إيجابية وإما آثار سلبية. فأما الآثار المحمودة فإنها تزيد مرآة القلب جلاء، وإشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين. ويرى الغزالي إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أشار إلى مثل هذا القلب بقوله: "إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه" رواه أبو منصور الديلمي. (وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر، كما يقول، مستشهدا بالآية الكريمة ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: 28). وأما الآثار المذمومة، فيرى الغزالي أنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير محجوبا عن الله وهو الطبع والرين. وكلما تراكمت الذنوب والأفعال القبيحة، كلما طبع على القلب، فيعمى عن إدراك الحق والحقيقة لكدورة المعاصي والخبث الذي تراكم على الوجه القلب، فيمنع صفاء القلب وجلاءه ويمنع بالتالي ظهور الحق فيه، فكل من أقبل على المعاصي اسود قلبه، وكل من اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقصه نوره (الغزالي، ج،10-11).

- الفطرة هي أصل العقل الباطن وحقيقته:

إن العقل الباطن عند الغزالي مصدر قوة دينامية حية فعالة، وينبوع العلم والمعرفة وحقائق الأمور وهذا يمثل جانب الفطرة التي تعتبر إحدى الأركان الأساسية لهذا العقل فالإنسان خلق بالفطرة صالحا لمعرفة الحقائق ومطبقا لها في الأصل، ولكن ثمة خمس عقبات قد تحول بين القلب وبين معرفة الأشياء على حقيقتها هي:

– أن يكون القلب مفتقرا إلى العدة التي بها تنعكس فيه الأشياء كما هي عليه، فقد يكون ناقصا كأداة من أدوات المعرفة، كقلب الصبي مثلاً.

– إن الأعمال الصالحة لا تكفي وحدها لحصول المعرفة (أي الغاية النهائية للإنسان)، لأن قلب الإنسان الصالح المطيع قد يكون صافيا وخالصا من الشوائب ولكنه قد يكون منصرفا عن الاتجاه الذي لابد منه له من أن يعكسه. فقد ينصرف هم القلب في مثل هذه الحالة إلى دقائق الطاعات البديلة، أو إلى تهيئة أسباب المعيشة، ولا ينصرف القلب إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة إن كان كذلك.

– القلب المتحكم بشهواته والمتحرر للتفكر في حقائق الغيب قد يظل عاجزا عن الاستكشاف، لكونه محجوبا عنها باعتقادات وميول سبق أن اكتسبها في أيام الصبا، فهذه الميول قد تحول بينه وبين تفتح قلبه للحقائق عما سبق له أن تعلمه وآمن به، فيكون القلب حينئذ محجوبا باعتقادات تقليدية.

– جهل الإنسان بالوسائل التي يجب أن يطلب بها المعرفة.

– كدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثر الشهوات بسبب انشغال القلب إلى حد بالغ بالشهوات ولذلك يعتبر العقل الباطن عند الغزالي مصدر قوة دينامية سلبية ومصدر الجهل والشعوذة وباطل الأمور للنفوس التي تنشغل بتسليط القوة الحيوانية على القوة العقلية، وكلما تراكمت الذنوب والأفعال القبيحة، كلما طبع على القلب، فيعمى عن إدراك الحق والحقيقة لكدورة المعاصي والخبث التي تراكم على وجه القلب، فيمنع صفاء القلب وجلاءه ويمنع بالتالي ظهور الحق فيه. فكل من أقبل على المعاصي اسود قلبه، وكل من اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره (الغزالي، (ج)،10).

ومن هنا نصل إلى القول أن العقل الباطن عند الغزالي مصدر قوة دينامية حية فعالة، وينبوع العلم والمعرفة وحقائق الأمور للنفوس التي تتجه إليه بتسليط القوة العقلية على القوة الحيوانية، لتزداد صفاء ونورا وقوة وصحة، فتنجلي صورة العقل الباطن للنفس، فتظهر مفاهيم الصحة النفسية: التوازن، التوافق، السكينة، المعرفة، الحب، والسعادة، لتناسب طبيعة النفس مع هذا العمق الأصلي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يعتبر العقل الباطن عند الغزالي قوة دينامية سلبية، ومصدر الجهل والشعوذة وباطل الأمور للنفوس التي تنشغل بتسليط القوة الحيوانية على القوة العقلية، فتظلم هذه النفوس بسبب كدورة المعاصي والخبث، الذي يتراكم على وجه النفس من كثرة الشهوات، فتمنع صفاءها، فيمتنع ظهور الحق فيها لظلمته فيشاهد العقل الضلالات وباطل الأمور بسبب تسلط الوسواس فتكون الأمراض النفسية والعقلية (الغزالي، (ج)، 11-12).

- العقل الباطن مزدوج الوظيفة:

يتكون العقل الباطن عند الغزالي من قوى حيوانية وقوى إنسانية موجودة فيه بالفطرة، وهي تتفاعل فيما بينها في إطار صراع، يعتبره الغزالي ضروري للنمو النفسي، وبالتالي تصبح هذه القوى مسؤولة عن كل ما يصدر عن الإنسان من سلوكات. فمن هذا التفاعل

تنشأ الرذائل والفضائل أي الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة، وعلى ضوء ما تفرزه هذه القوى من قوى فرعية يكون الإنسان، وتتشكل أصناف الناس فإما نفس مطمئنة، أو لوامة أو أمارة بالسوء، ومجال الصحة الذي أشار إليه الغزالي في هذا العقل الباطن يمثل الفطرة التي تعتبر من أهم مكوناته، ومن المفاهيم الأساسية في فكره. فالفطرة بالنسبة للغزالي، هي جوهر الطبيعة الإنسانية التي تميل بطبعها إلى البحث عن الله ومعرفته، هذا إذا تحررت من المؤثرات التي تؤدي بها إلى الانحراف، واسترشدت بالحقيقة والبحث عن الحقيقة هو بحث عن كل ما يرضي الروح. لكن الفطرة مرنة تتكيف في نموها الفعلي تبعا للعلاقات التي تتأصل بينهما وبين الشهوات والغضب. يقول الغزالي في هذا الصدد: "ميل النفس إلى الأمور الدنيوية خارج عن طبعها، غريب عن ذاتها، وعارض على طبعها، وإنما ميلها الأصلي الذي خلقت من أجله، هو الحكمة ومعرفة الله وحبه، وكلما انصرفت النفس عن مقتضى طبعها، فذلك دليل عل مرض حل بها" (الغزالي، (ج)، 54).

فالفطرة تمثل الجانب الإيجابي في كل الغرائز الموجودة في العقل وما يخالف الفطرة يمثل الجانب السلبي منها، ومن ثم يرى الغزالي أنه إذا تحققت العدالة بين القوى ظهرت قيم الفضيلة التي تعتبر بوابة الصحة النفسية وبالتالي كان العقل الباطن مشرفا لأن الفطرة تسير باتجاه الروح التي هي أصله وجوهره. أما إذا لم تتحقق العدالة واختل الميزان بحيث سيطرت القوى الشهوية والغضبية على القوى العقلية ظهرت قيم الرذائل التي تمثل الأمراض النفسية وبالتالي كان العقل الباطن مظلما لأن الفطرة طمست وحجبت عن أداء وظيفتها. فالقائد في العقل الباطن حينئذ هي القوى الحيوية، والطاقات النفسية واقعة في قبضتها. بهذا المعنى يكون العقل الباطن مصدر الأمرين عند الغزالي: الصحة والمرض. وإلى هذا المعنى أشار الباحث "جوزيف ميرفي" حيث قال: "إن عقلك الباطن له حياته الخاصة التي تتحرك دائم صوب الانسجام والصحة والسلامة والله يوجهه حسبما شاء وهو يعكس تلك التوجهات ويظهرها من خلالك طوال الوقت، فإذا كان فكرك متسقا مع المبدأ الخلاق لعقلك الباطن، فأنت في هذه الحالة تكون مواصلا مع مبدأ الانسجام أو الاتساق الفطري، فإذا تبينت أفكارا لا تتفق مع مبدأ الانسجام والاتساق، فإن تلك الأفكار سوف تعلق بك وتضايقك وتقلقك وتجلب عليك الأمراض وإذا استمرت كثيرا قد تؤدي إلى وفاتك في النهاية" (جوزيف ميرفي 2008: 116).

مما تقدم، يبدو لنا، أن مفهوم العقل الباطن عند الغزالي أشمل وأوسع من مفهوم اللاشعور عند فرويد. فاللاشعور عنده هو جزء من أجزاء العقل الباطن. إنه جزء من كل.

ولهذا السبب، نجد أن فرويد تطرق لمفهوم الكبت وأهمل مفهوم الضبط، إذ وجدناه يحصر المنع والحجز في عملية واحدة لا واعية لا شعورية، هي الكبت، وهو بهذا يطلق على كل عملية ضبط عملية كبت، فلا يوجد عنده ضوابط، وكل شيء عنده كوابت ضارة مفسدة ومقلقة ومهلكة، لأنه أنكر وجود القوى العقلية كقوى ضابطة بالفطرة.

أما الغزالي، فيركز على عملية الضبط، وهي عملية أخرى غير الكبت، بحيث هي شعورية واعية تتولاها القوى العقلية، من حيث هي قوى فطرية في النفس، بمعونة خارجية، وتلك هي مهمة التربية والمهمة الحقيقية للوالدين، لأن القوى الضابطة عند الصبي تكون ناقصة ولا تكتمل وحدها إلا بمساعدة الوالدين. ولكن هاهنا نقاط، لابد أن توضح بالنسبة للكيفيتين النفسيتين (الشعور واللاشعور) عند كل من العالمين.

لاحظنا أن الغزالي، أشار إلى أن الأمراض النفسية لا شعورية وذلك يبدو بصريح العبارات، في كثير من نصوصه مثل: "فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء، لم يدل على أن الدوار مراد لعينه أو أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومن مرض القلوب مما لا يشعر به غالبا، فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، لو ذكر له، لا يصدق به، والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا، إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهه ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه" (الغزالي، (د)، 120).

وفي نص آخر يقول: "فإن مرض القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه، لا يعرف برصه، ما لم يعرفه غيره" (الغزالي، (د)، 45).

وفي حديثه عن أسباب انتشار الأمراض النفسية، يقول: "...وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ثلاث علل، أحدهما: أن المريض به لا يدري أنه مريض..." (الغزالي، (د)، 43).

إن هذه النصوص تشير بصريح العبارة إلى اللاشعور في علاقته بالأمراض. ولكن السؤال الذي يطرح: هل مفهوم اللاشعور عند الغزالي، (ذلك الجزء السلبي في العقل الباطن)، هو نفسه مفهوم اللاشعور عند فرويد؟

إن مفهوم اللاشعور عند فرويد مرتبط بعملية الكبت، لكن الغزالي لم يشر إلى هذا المصطلح (الكبت)، بالرغم من أنه أكد على أن المرض النفسي لا شعوري في الغالب. فهل هذا يعني أن الكبت وهم لا وجود له في الأصل؟ أو على الأقل في فكر الغزالي؟ خصوصا وأن الدراسات الحديثة في علم النفس أغفلت تماما هذا الجانب، ولم تعترف به، كما أن الدراسات التجريبية الدقيقة لم تؤيد مفهوم الكبت.

هل اللاشعور الذي أشار إليه الغزالي غير اللاشعور الفرويدي، وإذا كان كذلك، فما هي العملية النفسية التي تتولاه؟

إن المؤشرات التي تدل على حدوث عملية الكبت، في نظرية فرويد هي كالآتي:

1-غيابالوعي

2- سيطرة الدوافع الغريزية (الهو) في الساحة النفسية

3-المقاومة.

فهل هذه العوامل موجودة في مفهوم اللاشعور عند الغزالي؟

يرى الغزالي أن مرضى القلوب لا يشعرون بالمرض، وهذا يعني أن ثمة أفكارا لها علاقة بالمرض. لم تضبط على مستوى الشعور، ولذلك فلتت منه، أين ذهبت؟ أين هي؟

إذا رجعنا إلى محتويات العقل الباطن عند الغزالي، نجد الجزء الإيجابي (الذي يمثل الصحة) والجزء السلبي (الذي يمثل المرض)، ومن ثم يمكن أن نقول أن هذه الأفكار التي انزلقت من الشعور، لا يمكن أن توجد في الجزء الأول، لأن هذا الجانب من العقل الباطن يخزن العمليات التي تضبط على مستوى الشعور، ولذلك لم يبق لهذه الأفكار التي غابت عن الوعي، ولم تضبط على مستوى الشعور سوى الانزلاق في الجزء الثاني من العقل الباطن حيث تقع في قبضة الدوافع الغريزية (قوتي الشهوة والغضب)، وتستمد قوتها منها.

ذلك ما لمسناه في كلام الغزالي: "مثل نفس الإنسان في بدنه كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمسير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته، حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تدبيراته ومستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث مستدلا بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه وأدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه. فكذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوانه

بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها..." (الغزالي، (أ)، 2000: 71-72).

نفهم من خلال النص، أن الذات ليست دوما سيدة في أحكامها وأفعالها، بل هناك قوة قد تتجاوزها وتستولي عليها وتنازعها السيادة، وهي قوة الغرائز، فالغزالي يؤمن بوجود قوة عميقة في النفس تلبس لباس العقل وتظهر بمظهره، وهي التي تقود وتسير حركات الذات حيث تنساق الذات وراء الغرائز، فهي لها من القوة ما يجعل العقل يزيغ عن الجادة، حيث يرى صاحبها الخطأ صوابا، والصواب خطأ.

فالقوى الشهوانية هي من القوى المحركة الباعثة، فهي تبعث على تحريك يقرب من الأشياء التي يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طالبا للذة (الغزالي، (أ)، 2000: 37-38). "فالفكرة ليست دوما نتائج العقل، بل يمكن للشهوة أن تنتج الفكرة" (نور الدين السافي 2003: 135).

والغزالي، بهذا التحليل، يشير إلى قوة الغرائز الكامنة في أعماق العقل الباطن والخفية عن الذات، وهي التي تحل محل العقل في أحيان كثيرة، حيث يقبل المرء على أمر يظن أنه خير وحسنة "فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى، فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره، ويجره البعض إلى البعض، بحيث لا يجد محيصا..." (الغزالي، (ج)، 67). فالإنسان يصبح والحالة هذه، مدفوعا إلى السلوك، دفعا قويا لا يملك إزاءه حولا وقوة ولذلك يركز الغزالي على ضرورة مراعاة أوائل الأمور، أي التنبه لأول الخواطر في النفس (الغزالي، (ج)، 32).

وإذا رجعنا إلى الرذائل التي يعتبرها الغزالي كأمراض نفسية لا شعورية، فإننا نجد أن كل رذيلة هي نتيجة رغبات وحاجات غير مشبعة. فالبخل مثلا، تشكل في النفس بسبب حب الشهوات التي لا وصول لها إلا بالمال، أو توقع الفقر والخوف منه، والجاه يعتبر وسيلة لإشباع رغبة التوصل إلى المال، أو رغبة انتشار الصيت والذكر، والرياء وسيلة لتحقيق لذة المحمدة والفرار من ألم الذم...، فكل الرذائل تحمل في طياتها رغبات نفس كامنة.

وهذه الرغبات غير المشبعة، إذا لم تضبط على مستوى الشعور، انزلقت إلى اللاشعور، تراكماتها يشكل "مواد" لرذائل مختلفة، تختزن في العقل الباطن، ثم تظهر على شكل سلوكات، تختلف باختلاف الرذائل، وأحيانا تظهر بشكل واضح وتعبر عن الرذيلة بأسلوب مباشر، حيث يخرج الأمر عن اختيار العبد "كالذي يتورع عن بعض الأشياء، ولكنه إذا رأى وجها حسنا، لم يملك عينه وقلبه، وطاش عقله، وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا

يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر، لا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب، مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند لقدرة على أخذ درهم أو دينار، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر، فينسى فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب، حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره، فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان وكل ذلك حصل (لانحباس جند العقل عن مدافعته) (الغزالي، (ج)،40-41).

وأحيانا أخرى، تظهر الرذائل، بشكل غير مباشر، أو في صورة جديدة، حيث تستعمل الذات حيلا في إخفاء الرذيلة، ذلك ما لاحظناه في تحليلات الغزالي نذكر بعضها:

1- إخفاء رذيلة بإظهار فضيلة، وهذا ما أشار إليه فرويد حين تكلم عن التكوين العكسي أو رد فعل يقول الغزالي وهو يصف بدقة سلوك المتكبر ويستنفذ إلى حيلته الدفاعية التي يلجأ إليها "إن المتكبر يجلس في صف انعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل، فيظن أن ذلك تواضعا، وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضيل، فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضا، بل ينبغي أن يقدم أقرنه ويجلس بينهم بجنبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر الباطن" (الغزالي، (ج)،316-317).

2- الأقيسة الفاسدة: حيث أشار إليها الغزالي في رذائل كثيرة، مثل الغرور حيث قال: "...أما من غرتهم الحياة الدنيا، فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهي إذن خير، فلابد من إيثارها... وهذه أقيسة فاسدة" (الغزالي، (ج)، 327). فالغزالي يشير إلى فساد هذا القياس الذي نظمته الذات الباطنة وركنت إليه، وإن كان صاحبها لا يشعر به. وهذا ما يسميه الغزالي خدع النفس. "وأغمض أنواع المعاملة، الوقوف على خدع النفس" (الغزالي، (ج)، 26).

فما تشكل وتأصل في قاع النفس يضغط بشدة، ويقاوم رغبة الذات في تأصيل الجديد. أي أن عملية العلاج تجعل الإنسان يواجه مقاومة من داخل نفسه، ولذلك تتفاوت قدرات الناس وإمكاناتهم الذاتية في تجاربهم التغييرية. وتزداد قوة المقاومة بعوامل كثيرة نذكر منها: امتداد عمرها التاريخي، وتمكنها في الذات بحكم العادة، ولمس ذلك في كلام الغزالي: "الجبلات مختلفة، بعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافهما سببان: أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة، وامتداده مدة الوجود، فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم

وجودا، وإذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له شهوة، ثم بعد سبع سنين يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز..." (الغزالي، (ج)، 48).

وقد أشار الغزالي، للصراع الذي تعيشه النفس والمقاومات التي تصدر منها، في تحليله للكثير من الرذائل والفضائل، حيث بيّن قوة الدوافع الغريزية وشدة مقاومة الذات في التخلي عن الشهوة، وما يزيد المقاومة قوة، أنها تريد أن تبقى لتلقى إشباعا بوسائل أخرى غير الشعور أو الظهر العلني من خلال استعمال وسائل خداعية كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

فالمقاومة عند الغزالي، هي دفعات مرضية تنبعث من داخل النفس لتقاوم الجديد والبديل العلاجي، مما يؤثر على عدم الاستجابة السهلة والسريعة. فالمقاومة شيء طبيعي بالنسبة للغزالي، لكن غير الطبيعي هو اعتبار الإنسان أضعف منها، وقد أمده الله بالقدرة على قهر القوة الفاسدة من الرواسب النفسية مهما كان قوتها، وما يساعد على ذلك نمو القدرات العقلية واكتمال النضج، "...كذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهم أثر، لم نقدر عليه أصلا، ولم أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة، قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك، وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله" (الغزالي، (ج)، 48).

ما نريد الوصول إليه، هو أن العناصر الثلاثة للكبت عند فرويد، وهي (غياب الوعي، قوة الغرائز وسيادتها، والمقاومة) متوفرة أيضا في فكر الغزالي، وبالرغم من أن الغزالي ركز على عملية الضبط، من حيث هي: العملية النفسية الأساسية في فكره، وبالرغم من أنه لم يذكر مصطلح الكبت في مؤلفاته، إلا أن الباحثة ترى أنه أشار إلى الكبت كعملية نفسية ديناميكية، لكنه لم يقر بحتميتها.

فاللاشعور (وعناصره: من كبت ومقاومة) يمثل جزئية من جزئيات فكر الغزالي وبالرغم من أن بعض الباحثين مثل "عثمان نجاتي" (1993) الذي أشار إلى أن الغزالي لم يتطرق للاشعور، و "عبد الكريم عثمان" (1981، 213) الذي قال أن الغزالي "بعيد كل البعد عن عملية الكبت، بحيث يمكن أن نسمي طريقته في معالجة الدوافع باسم عملية الضبط وهي تختلف عن الكبت "، إلا أن الباحثة ترى أن الغزالي إذ ركز على الضبط، وهي عملية تختلف فعلا عن الكبت، لكنه لم يهمل عملية الكبت، وهذا ما استنتجناه من تحليله للأمراض النفسية.

ولذلك نقول، أن العقل الباطن عند الغزالي، تتجاذبه عمليتان نفسيتان: الكبت في حالة المرض، (وإن كان الغزالي لم يذكره كمصطلح)، والضبط في حالة الصحة، وإذا كانت الكيفية النفسية في حالة الكبت هي اللاشعور عند فرويد وكذا عند الغزالي، فما هي الكيفية النفسية في حالة الضبط عند الغزالي؟

إن الكيفية النفسية في حالة الضبط هي الشعور، بادئ ذي بدء، لأن عملية الضبط تتم على مستواه، لكن آثارها تنعكس في العقل الباطن، حيث تثبت صفات جديدة في هذا العمق، مما يجعل السلوك يصدر بتلقائية وآلية، وحينئذ نقول أن السلوك لا شعوري. وهذا المفهوم أشبه بمفهوم العادة عند السلوكيين. لكن التشابه لا يعدو أن يكون في بعض مظاهره فقط، لأنه في جوهره، أبعد ما يكون عنه في أهدافه الواعية ونواياه الباطنية. فالكيفية النفسية في العقل الباطن بعد عملية الضبط الشعورية، هي اللاشعور أيضا. ومن ثم نستنتج أن العقل الباطن، عند الغزالي فيه كيفيتان: لا شعور إيجابي يمثل جانب الصحة، ولا شعور سلبي يمثل جانب المرض.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، وجدناه يشير إلى هذين المعنين: حيث وردت كلمة اللاشعور بمفهومه إيجابي في بعض الآيات مثل ﴿**نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ**﴾ (المؤمنون: 56)، وبمفهومه السلبي في آيات أخرى مثل ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ (البقرة: 12). وهذه نقطة تسترعي الانتباه وتلفت النظر، وتحث على المزيد من البحوث فيما يخص اللاشعور في القرآن الكريم، عساها تكون قاعدية لنظرية جديدة في علم النفس الإسلامي.

- **دينامية العقل الباطن:** يعتبر العقل الباطن عند الغزالي المخزن الوظيفي لتصرفات الإنسان وسلوكه، بحيث تنعكس آثار هذا التخزين فيما بعد على الشخصية ككل إذا تظل تعمل من بعيد في عملية التوجيه والفعل والسلوك، ذلك هو الشأن أيضا عند فرويد، فإما أن تنطلق الشهوات انطلاقا حرا أي حيوانا لا شذوذ فيه، وإما أن تنعكس الطاقة في سلوك متحجر أو بليد (هؤلاء يمثلون الصنف السلبي من الناس)، وإما أن تقتحم السدود المواجهة لها، فتتدفق الطاقة بعنف، والكثير من الجرائم تحديث بسبب هذا الكبت وإما أن تتحول إلى آليات دفاعية يخفف بها التوتر والقلق، وإما أن تتحول إلى أمراض عصابية أو ذهانية وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

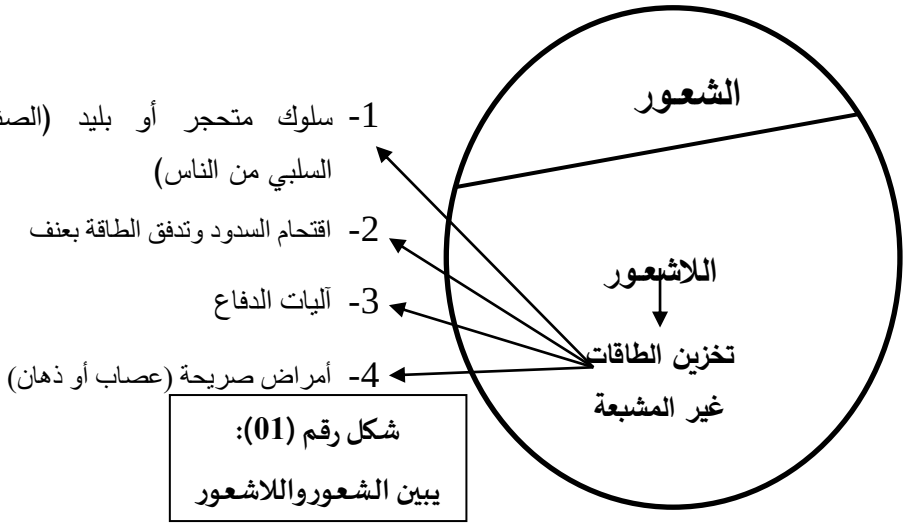

شكل رقم (01):
يبين الشعور واللاشعور

لذلك كان اللاشعور عند فرويد مصدرا للمرض فقط، أما العقل الباطن عند الغزالي فهو مصدر للأمرين: الصحة والمرض والسبب في ذلك، هو أن العقل الباطن بهذه الازدواجية لا يخزن الطاقات غير المشبعة فقط كما هو الحال عند فرويد، وإنما يخزن الطاقات المشبعة على مستوى الشعور، بواسطة عملية نفسية هي عملية الضبط، ومن ثم فإن العقل الباطن لا يحوي بالضرورة على المكنونات، وإنما يحتوي على المضبوطات أيضا. وليس أمام الإنسان إلا المسالك السلبية التي ذكرها فرويد، وإنما هناك مسلك آخر بالإضافة إلى هذه المسالك، وهو مسلك ضبط الشهوات على مستوى الشعور بالفضائل كما يوضحه الشكل التالي:

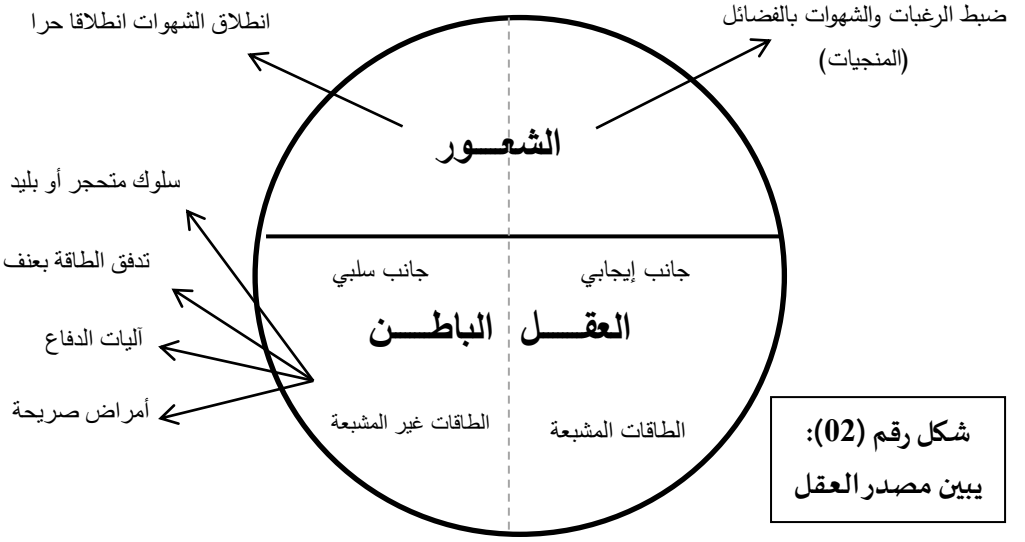

شكل رقم (02):
يبين مصدر العقل

ولذلك، فالإنسان حسب الغزالي يسلك أحد المسالك التالية: إما أن يضبط الشهوات بالفضائل فيسلك طريق الفضائل فيكون حسن الخلق، وإما أن يشبع رغباته بالرذائل، فيسلك طريق الرذائل فيكون سيء الخلق إذا تجمعت فيه، إما أن يبقى بين هذا وذاك، لا هو حسن الخلق ولا هو سيء الخلق أي غافلا. والمسلك الأول: يعتبر بوابة الصحة النفسية، حيث يقول الغزالي "الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس" (الغزالي، (ج)، 52).
أما المسلكان الثاني والثالث، (الرذائل والغفلة) فيمثلان حقيقة المرض النفسي، حيث يقول الغزالي "الأخلاق الخبيثة هي أمراض القلوب وأسقام النفوس" (الغزالي، (ج)، 42).

أما القلوب الخالية من الهوى والصفات المذمومة في نظر الغزالي فإن المرض يطرقها لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر والتوحيد (الغزالي، (ج)،32) فالأمراض عند الغزالي نوعان: مرض الغفلة وأمراض الرذائل التي تحدث بسبب عدم اعتدال القوات الباطنية للإنسان (القوى الشهوية والقوى الغضبية والقوى العقلية). ويشير الغزالي أيضا إلى الجنون كمرض يحدث بسبب التفريط الحاصل في قوة العقل، "إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون... والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض وأما الجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا" **(الغزالي، (ج)**، 47).

وفي نص آخر، نجد الغزالي يشير إلى الهلع كمرض آخر يحدث بسبب التفريط الحاصل في القوى الغضبية. "إذ من اعتدال القوى الغضبية تحدث الشجاعة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا، ويندرج تحت الجبن أمراض فرعية أخرى هي النذالة والنكول وصغر النفس والهلع والانفراط والتخاسس والمهانة..." (الغزالي، (ج)، 88-89).

وما لاحظناه في هذه النصوص هو إشارة الغزالي لمصطلحات تمثل سمات الشخصية فهناك سمات عقلية مثل البله والحمق... وهناك سمات تحمل طابع الشخصية المكتئبة مثل الجزع، وهناك مصطلحات تمثل سمات الشخصية القلقة مثل النكول، وهناك مصطلحات تمثل المرض في حد ذاته مثل الجنون والهلع. هذان المصطلحان الأخيران يعبران عن المرض في علم النفس المرضي، فالأول (الجنون) يعبر عنه بالذهان أي انفصال المريض عن الواقع، أما

الثاني (الهلع) فهو مرض عصابي يندرج ضمن أحد اضطرابات القلق، وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم (03): يبين مسالك الطاقات في العقل الباطن

مما تقدم يتبين لنا، أن الغزالي ركز على أمرين:

1- الأمراض الصادرة من هذا العقل الباطن، حيث أشار إلى الذهان وإلى العصاب، وفي نصوص متفرقة إلى الغفلة، لكنه ركز على أمراض الرذائل وأطلق عليها مصطلح "المهلكات" وحللها تحليلا نفسيا تميز به عن سابقيه كابن سينا (الغزالي، دت، ج) وأضافت الباحثة تحليلها فوجدت أن هذه الرذائل أمراضا مكبوتة في الغالب، وأنها تعتبر في ذات الوقت حيلا دفاعية مرضية، تحمل في طياتها أو تخفي وراءها رغبات وشهوات. وترى الباحثة أن الغزالي أطلق عليها مصطلح مهلكات لأنها توقع صاحبها في قبضة الغرائز فتحيد به عن الفطرة، فهي في نهاية المطاف آليات دفاعية مرضية.

2- الصحة الصادرة من العقل الباطن والتي مؤشراتها هي الفضائل: حيث تكلم الغزالي عن ثلاثة أنواع من الفضائل: "فضائل منجيات وهي التوبة – الصبر – الشكر – الرجاء – الخوف من الله – حب الله – التوكل والرضا – الإخلاص – الصدق – المحاسبة والمراقبة – التفكر".

وترى الباحثة أن الغزالي أطلق عليها مصطلح منجيات لأنها تنجي صاحبها من الوقوع في الكبت، وتسير به باتجاه الفطرة، فهي في نهاية المطاف آليات دفاعية صحية، بحيث إذا ضبطت الشهوات على مستوى الشعور بهذه الفضائل المنجيات (آليات دفاعية)، تحقق التوازن بين الطاقات النفسية الموجودة في العقل الباطن بالفطرة (القوى الشهوية والغضبية والعقلية).3 أمهات الفضائل: وتتمثل في أربع فضائل: "وهي الحكمة بالنسبة للقوى العقلية والعفة بالنسبة للقوى الشهوية، والشجاعة بالنسبة للقوى الغضبية: فتتحقق بذلك الفضيلة الرابعة (العدالة) والتي هي جامعة لجميع الفضائل". فضائل فرعية: وهي "الفضائل التي تتفرع عن أمهات الفضائل، والتي تمثل سمات الشخصية المتوازنة، وهذه الفروع ما هي إلا تدرج في سلم الصحة النفسية". أما إذا لم تضبط الشهوات على مستوى الشعور، فيختل التوازن بين الطاقات الموجودة في العقل الباطن بالفطرة (القوى الشهوية والقوى الغضبية) فتظهر السمات المرضية، حيث أشار الغزالي إلى سمات عقلية مثل البله والحمق.. وسمات تحمل طابع الشخصية المكتئبة مثل الخمول والتذلل، وسمات تحمل طابع الشخصية العدوانية مثل المكر والخداع والوقاحة. كما أشار إلى مصطلحات تحم المرض في حد ذاته وهي: الجنون والهلع كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ولما كان العقل الباطن هو مستودع الأمرين: الصحة والمرض، كان لابد من البحث في أعماقه عن حقيقة الأفكار والمعتقدات الموجودة فيه، وذلك لإصلاحه وعلاجه ويتم ذلك بطريقة التخلية والتحلية أي التخلية من الأمراض التي حددها الغزالي في مجموعة من الرذائل التي تعتبر الأبواب الكبرى للإصابة بأمراض أخرى قد تكون أعقد وأخطر. أما التحلية فهي تعبئة النفس بمجموعة فضائل تكون بمثابة مناعة صحية. فلا يكفي في رأي الغزالي، أن نفرغ النفس من هذه الرذائل، فالفراغ في حد ذاته غفلة والغفلة مرض أيضا. "وأي علاج لشخصية من دون معالجة العقل الباطن هو عبث أو مجرد تهدئة تسكين للألم والمشكلة" (محمد فتحي شيخ الأرض، 2007: 37).

خاتمة:

إن العقل الباطن عند الغزالي أوسع وأشمل من مفهوم اللاشعور عند فرويد، فهو يحتوي على جانب إيجابي يمثل الصحة النفسية التي تعكس الفطرة، أما العمليات النفسية التي تصرف الطاقة، فتتمثل في عمليتين، عملية الضبط النفسي وما تحتويه من مقاومة إيجابية في حالة الصحة وعملية الكبت وما فيها من مقاومة سلبية في حالة المرض، أما

الكيفية النفسية الموجودة في العقل الباطن فتتمثل في كيفيتين هما: لا شعور إيجابي يمثل الصحة ولا شعور سلبي يمثل المرض.

بهذا المفهوم يكون العقل الباطن أكثر تحديدا وأكثر وضوحا، كما يصلح كأساس لبناء قاعدة لنظرية علمية، على عكس اللاشعور الذي يشوبه الغموض بين الحيز (المخزن) والكيفية النفسية، في حين أن العقل الباطن يمثل الحيز والمحل أما الكيفية النفسية فشيء آخر تماما فهي صفة من صفاته أو خاصيته من خاصياته، بالإضافة إلى الخصائص الأخرى. فعسى أن ينتبه الباحثون إلى أهمية الموضوع ويجتهدون في دراسته والبحث فيه وكشف نقائص الدراسة وما خفي عنا من معلومات لأن الموضوع مازال يحتاج إلى الكثير من البحوث النظرية والإمبريقية أيضا.

ولذلك نقول لفرويد: ليس "العصاب هو الذي يحمي الفضيلة" (1969: 54)، فلا صحة نفسية بلا فضيلة، وليس "من ينبغي أن يكون أعظم نبلا، يسقط ضحية العصاب" (1969: 49).

إن فضيلة النبل، لا تخفي وراءها مرض، إلا إذا قامت على أساس عملية الكبت النفسي، فحينئذ نكون أمام حالة نفاق، حيث الظاهر يخالف الباطن.

أما إذا قامت فضيلة النبل أو أية فضيلة أخرى، على أساس عملية الضبط النفسي، فذلك مؤشر على الصحة النفسية. فالعملية الأولى، منبعها اللاشعور نتيجة الكبت، أما العملية الثانية، فلا تصل إلى اللاشعور إلا بعد أن تضبط على مستوى الشعور لتثبت بعد ذلك في قاع اللاشعور، وتظهر آثارها على السلوك، حيث يوافق الظاهر (النبل) ما يوجد في الباطن (النبل) ولذلك كان العقل الباطن عند الغزالي مصدر النقيضين: الصحة مع عملية الضبط النفسي، المرض مع عملية الكبت النفسي، أما الكيفيات النفسية لهذا العقل الباطن، فهي: لا شعور سلبي يفرز الأمراض، لا شعور إيجابي يفرز الصحة.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.
2- بول ب. باتلس، ألكسندرا م. فروند(2006) ، القوى الإنسانية باعتبارها التناغم بين الحكمة والاختيار الأمثل مع التعويض، ترجمة صفاء الأعسر، في: ليزاج، اسبينوول أوسولام، ستودينجر (تحرير)، سيكولوجية القوى الإنسانية، ترجمة ومراجعة صفاء يوسف الأعسر وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
3- حجازي مصطفى (2004)، الصحة النفسية، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.

4- سليجمان مارتن (2005)، السعادة الحقيقية، ترجمة صفاء الأعسر وآخرون، ط1، دار العين للنشر، القاهرة.
5- شيخ الأرض محمد فتحي (2007)، تحولات الطاقة البشرية في حياتنا النفسية، ط1، دار العرب.
6- عثمان عبد الكريم (1981)، الدراسات النفسية عند العلماء المسلمين والغزالي بوجه خاص، ط2، دار غريب للطباعة.
7- العريمي أيمن (2006)، اكتشف وبرمج عقلك الباطن، ط1، دار الأسرة، عمان، الأردن.
8- الغزالي أبو حامد (1981)، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط5، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
9- الغزالي أبو حامد (2000)، ميزان العمل (أ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
10- الغزالي أبو حامد (د.ت)، إحياء علوم الدين، تحقيق الإمام العراقي، الجزء الأول (أ) مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.
11- الغزالي أبو حامد (د.ت)، إحياء علوم الدين، تحقيق الإمام العراقي، الجزء الثالث (ج) مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.
12- الغزالي أبو حامد (د.ت)، إحياء علوم الدين، تحقيق الإمام العراقي، الجزء الرابع (د) مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.
13- فرويد سيجموند (1969)، ثلاث مقالات في الجنس، ترجمة سامي محمود علي، ط2 دار المعارف، مصر.
14- مدن يوسف (2006)، العلاج النفسي، ط1، دار الهادي، بيروت، لبنان.
15- نجاتي عثمان (2001)، علم النفس الإسلامي، ط1، دار الشروق، القاهرة.
16- نجاتي محمد عثمان (1993)، الدراسات النفسية عند العلماء المسلمين، ط1، دار الشروق، القاهرة.
17- Mike W. Martin (2006), From morality to metal health: virtue and vice in therapeutic culture, Oxford University Press.
18- Resnick Barbara et al (2008), Resilience In Aging, Springer Verlag, New York.
19- Vaillant E. George, Adaptive mental mechanisms, their role in a positive psychology, American Psychologist, Vol. 55, n°1, 201, 89-98